في الطريق الى مؤتمر المستشرقين

من القاهرة الى بروكسل

للدكتور عبد الوهاب عزام

بنيتي العزيزة بثينة

أحدثك عن رحلتي راجيا ألا تكلفيني ترتيب الحديث على ترتيب المشاهد . فانما هي فُرص تنتهز . فسأبدأ بالحديث عن سويسرة قبل الحديث عما رأيت في الطريق إليها .

* * *

أكتب إليك من قرية في قمم جبال سويسرة الشامخة اسمها برجنشتوك وقد أضحى النهار ، والدجن مُطبق ، والجوّ بارد ، أحسّ منه مثل ما أحس في شتاء مصر إذا قرس . وأنا أضع قلمي بين الحين والحين لأعرك كفّي إحداهما بالأخرى حتى أحسن إمساك القلم . فشتان ما بيني وبينكم ؛ شتان ما بين حلوان وبُرجنْشتوك !

لا تقع العين هنا إلا على خضرة أو زُرقة ، أو بياض : خضرة العشب الأثيث ، والشجر الكثيف ، وزرقة السماء إذا تصحو ، وزرقة البحيرات ترى من قمم الجبال بعيدة بعد السماء ، وبياض السحب .

تسألين : ما الذي أحلك هذه القرية الباردة في تلك القمم العالية ؟

نزلت أنا وزميلي الأستاذ أحمد أمين مدينة لوسرن من سويسرة ، وأردنا أن نركب في البحيرة : بحيرة لوسرن إلى مكان قريب . فقيل : كرْسيتن . فقصدناها على باخرة صغيرة بين مناظر معجبة بل مدهشة من جبال تخالط قممها السحب ، ويزين سفوحها حللٌ من الأشجار ضافيةٌ في الماء ، وتُطلّ في مرآة البحيرة منازل متفرقة أو قرى صغيرة كأنها أعشاش الطير بين أفنان الدوح

بلغنا كرسيتن بعد أربعين دقيقة ، فنزلنا النجول فيها قليلا فاذا شاطىء ضيق بين الماء والجبل ، فيه فندق ومطعم ودووخليلة ، وإذا الناس يجتمعون عند السفح ، وإذا مركب عجيب مُدّت أمامه قضبان من الحديد ، ولكن إلى أين ؟ إلى ذروة الجبل الرفيعة التي يكاد الطرف يعيا دونها . مدت القضبان على السفح ، وأُعِدّ هذا المركب على شكل لا يميل راكبه مع انحدار الطريق بل يجلس مستويا كأنه في قطار عادي . ويجذب هذه « المرقاة » حبل من حديد مفتول فتصعد خمس دقائق في طريق ضيق عن يساره الجبل ، وعن يمينه هوى هائل إلى الحضيض . انتهى بنا هذا المرتقى المخيف إلى مكان به فنادق عظيمة وطريق ضيقة معبدة ، فسرنا نتأمل جمال الخليقة وجلالها حتى راقنا مكان قصيّ على سفح أخضر ؛ فصعدنا إليه ، وأخذنا حظنا من الراحة والتأمل والتعجب . وكان معنا طعامنا فطعمنا

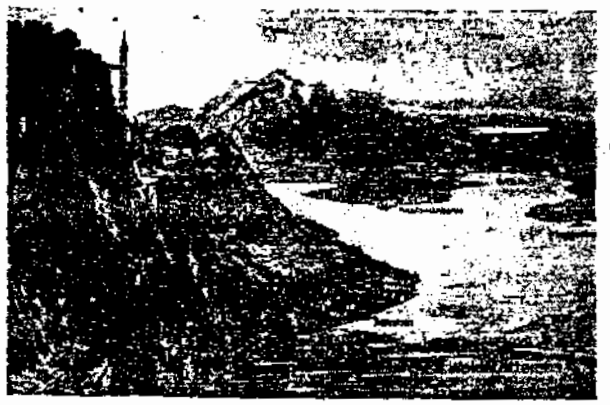

(منظر عام لبحيرة لوسرن ومدينة لوسرن)

وسرنا إلى مَرقَب يُطل على البحيرة يعلو على البحر ثلاثة آلاف وأربعمائة قدم ، فجلسنا قليلا ولحق بنا جماعة من السائحين الأمريكانيين معهم امرأة تدلهم الطريق والتاريخ . وقفت وحفُّوا حولها فقالت : « هنا منظر من أروع مناظر العالم ؛ هنا سبع بحيرات ؛ إلى اليسار بحيرة سمباخ . ولها صيت في تاريخ سويسرة : هنا كانت حرب بين النمساويين والسويسريين الثائرين عن بلادهم ، وكان الأولون مثلي الآخرين عدداً . فلما أعيت السويسريين الحيل تقدم واحد منهم إلى معسكر العدو فجمع من رماحهم ما استطاع وهم بالرجوع لولا أن أدركه العدو فقتله . وتحمس قومه وحاربوا حتى ظفروا . هذا البطل اسمه « وينكل ريد » . ومضت في حديثها عن البحيرات . وقد رأيت اسم هذا البطل على إحدى البواخر الماخرات في البحيرة

وقرأنا في لوحة هناك أن على مسيرة عشرين دقيقة مِصعداً هو أعلى المصاعد وأسرعها في أوربا . يصعد خمسمائة وستا وخمسين قدماً . فسرنا في طريق بين الأشجار الباسقة تلوح من خلالها زرقة السماء وزرقة البحيرة ، وقد تنابت الأشجار على السفح هابطة، وإن الواحدة منها ليرى جذعها مُستقلا بعيداً على السفح، وتشرف ذروتها مُعتلية مُشرفة فوق الطريق . وهذه الأشجار السامقة ترى من الحضيض كأنها أعشاب على السفح أو شجيرات

(المصعد)

وانتهى السير إلى المصعد ، فاذا قضبان محكمة على جانب الجبل يصعد بها هذا المصعد وينزل في دقيقة. يصعد في جوف الجبل حيناً ثم يبدو بين جدارين مائتين من السفح، ثم يظهر معلقاً في الفضاء كأنه طائر يحاول ذروة شاهقة

بدا لنا أن نترك لوسرن لنقيم في هذه الناحية أياماً . فسرنا نرود المكان ونفاذقه حتى وقف بنا الاختيار على فندق صغير منفرد هو أقرب مكاناً ومنظرا إلى الريف منه إلى المدن . فقلنا : هذا منزل حسن .. ماذا نصنع بالمدن وهي متشابهة في العالم كله ؟ وماذا نرى في الفنادق الكبيرة وهي لا تختلف بين مدينة وأخرى إلا قليلا ؟ هنا نظفر بالهدوء والسكون ، ونقرب من الغابات والحقول ونرى من عادات القوم ما لا نرى في لوسرن

وجاءت الخادم تكلمنا بلغتها وهي لا تعرف لغة مما نعرف فتفاهمنا بالألفاظ المتقاربة بين الانكليزية والفرنسية وبين السويسرية، ولمحنا في جانب الحجرة رجلا أشيب فأشرنا إليه ليكلمنا فأشارت الخادم أنه أصم فقلت : « كالمستجير من الخرساء بالصمم »

أخذنا بعض متاعنا من لوسرن إلى برجنشتوك . وبلغنا الفندق حين الغداء (والساعة اثنتا عشرة وربع) دخلنا قاعة الطعام فاذا امرأتان ليس في القاعة غيرهما ، وقد أعد لنا الطعام معهما . وليس بيننا لغة إلا الاشارات وكلمات حائرة بين ما نعرف وما تعرفان من اللغات . وقدم اللحم فرابني بياضه . فأشرت : أي لحم هذا ؟ قالت إحداهما كلاماً وحكت صوت الخنزير — وهذا الخنزير يخيفني حيثما حللت من أوربا — أشرت أننا لا نأكل الخنزير . قالت المرأة الأخرى لصاحبتها : إسرائيليان . قلت : لا لا ، لا ، ولكن المصريين لا يطعمون لحم الخنزير . فكانت حركة في الفندق وارتباك . ثم قدم لنا لحم البقر سريعاً . وفي العشاء قدم إلينا الكاكاو وكثير من اللبن وعجة البيض وفاكهة مطبوخة ورأينا القوم يأكلون العجة مع الفاكهة فعجبنا من اختلاف العادات والأذواق .

استرحنا ثم نزلنا لنخرج فدعينا إلى شرب القهوة وقدّم لكل واحد مع القهوة ملء كوب من اللبن الجيد ، واللبن عندهم موفور لكثرة البقر وقرب مراتعها ، وأصحاب الفندق أسرة من الفلاحين

وكنا حين قدمنا هذا الصقع لأول مرة ، سمعنا جلجلة أجراس مختلفة لا تنقطع لحزرت ، وصدق الحزر ، أنها أجراس في أعناق البقر أو الغنم . (وكنت رأيت في إصفهان من بلاد الفرس أجراساً في أعناق الابل والثيران ، ورأيت البدو يعلقون جرساً في رقبة الكبش تهتدي به الغنم وتجتمع على صوته؛ ورأيت هذا في مضارب قبيلة شمّر في العراق وعلمت أنهم يسمون هذا

الكبش المرباع) فلما استقر بنا المقام فى الفندق أردنا أن نجوس خلال الحقول لنرى البقر فى مراتعها . وكانت أجرامها تجلجل فى الأرجاء بين هذا الجمال الأخضر والجلال الرائع ، بل فى هذا المعبد العظيم من الخليقة فكأنها أجراس المعابد !

سرنا بين المروج فرأيناها مقسمة بحواجز . كأن لكل بيت مساحة من المرعى ، ورأينا على الطريق أبواباً تمنع البقر أن تجاوز مراعيها . ثم رأينا بقراً يرعى وقد جعلت أجرامها على قدر أسنانها : للعجل جرس صغير ، وللثنى جرس أكبر منه ، وللبقرة الفارض جرس كبير كأنه القدح . ورأينا حظائر للبقر تأوى إليها فى الشتاء ، وهى بيت من الحجر فيه قنوات لسيل الماء ، وعنده حوض لشرب الدواب ، وفوقه بيت من الخشب يوضع فيه الحشيش وأدوات الفلاحة . وتجعل الحظائر بجانب مكان عال ليتسنى دخول عربة الفلاح إلى الطبقة العليا . وبيوت الفلاحين جميلة المرأى يتجلى فيها النظافة والترتيب والنعمة . وكم تمنيت أن يكون لفلاحنا بعض ما لهؤلاء

ورأينا على الطريق نُصباً عليه صليب ، فاقتربنا منه فاذا حجر واحد نحتت فى أعلاه طاقة عليها شباك من الحديد . فاطلعنا فيها فاذا صورة قديس وقديسة ، ورأينا امرأة مرت بهذا النصب فوقفت قليلا تتعبّد ، وكان كل من يمر بهذا الطريق يقف هناك وقفة للعبادة . وكذلك رأينا بجانب الفندق بَنِيّة صغيرة يعلوها صليب ، فاطلعنا فيها فاذا معبد يتسع لبضعة نفر ، وأحسبناه معبد الأسرة التى تقوم على الفندق . وهكذا يحرص القوم على دينهم ويتوسلون إلى العبادة بكل الوسائل

وأما الفندق فهو مثل من نشاط القوم ونظافتهم ونظامهم . هناك أم كثيرة الأولاد قد أحسنت تربيتهم ، ومنحت من قلبها ويدها ما جعلهم قرة عين الرائى صحة وجمالا ونظافة . وهى قائمة على الفندق تعينها خادم واحدة لا ترى إلا ساعية أو عاملة أو متكلمة أو ضاحكة . وقد تبوأت الأسرة بعض الفندق وجعلت للنزّال بعضه ، ولم تنس حقها ولا حق النزال من رفاهية ومتاع . وأنا أكتب الآن وقد جاء صبى من هذه الأسرة يطرب الحاضرين بموسيقاه . وهكذا يبدو النشاط والمرح والسرور ليل نهار

وحول الفندق أشجار الفاكهة ، ومزرعة صغيرة عليها سياج ومن هذه الأشجار وهذه المزرعة فاكهة الفندق وبقوله يجنيها الأولاد كما تأمرهم الأم

وأحدثك مرة أخرى عن روعة هذا الصقع فقد بدا لى أن أعود إلى هذا الحديث :

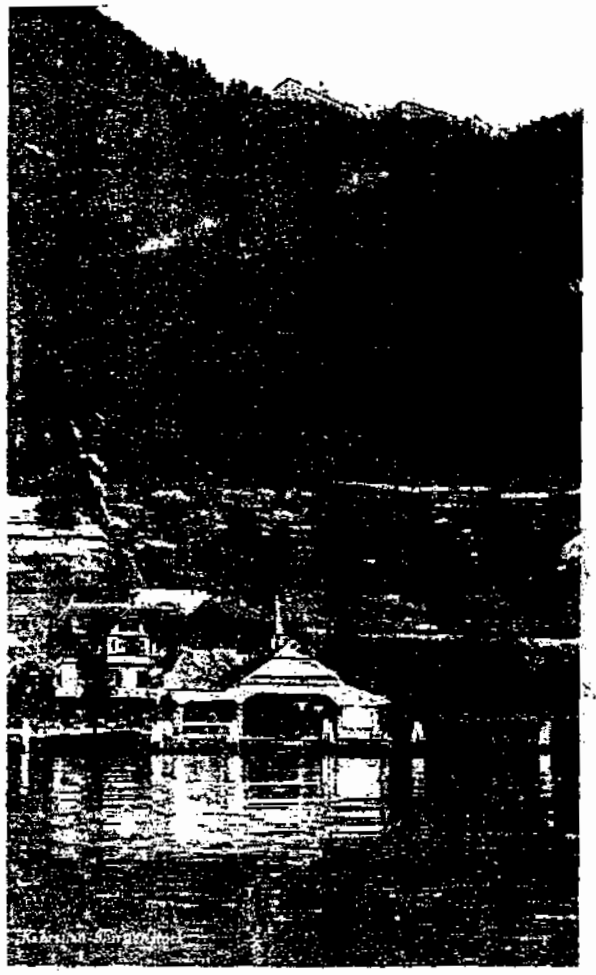

قرية كرسين على بحيرة لوسرن

خرجنا عصر اليوم فسرنا إلى المصعد الذى وصفته آنفاً فى طريق ضيقة نحتت على سفح الجبل ينيف فوقها جبل شامخ وتبدو تحتها هوة هائلة . فلما جاوزنا المصعد تمادت بنا الطريق صاعدة فى السفح تخترق الجبل بين الحين والحين إذا لا تجد على السفح منفذاً . فلما أعجز القوم النحت فى مواضع من هذا الطود العاتى الأشم مدّ الطريق على دُعم من الحديد مثبتة فى الجبل ، فترين السائر معلقاً بين السماء والأرض على هذه الشفة الضيقة حتى يبلغ النهاية

وقصارى القول أن تسخير الانسان للخليقة سهلها ووعرها